



صاحبـي (فـ) تـدـيـنـ أـخـيـراـ وـلـمـ يـحـصـلـ عـلـىـ تـعـلـيـمـ كـافـ، وـتـلـقـىـ مـنـ حـوـلـهـ بـضـعـ مـسـائـلـ يـدـورـ عـلـيـهـ حـدـيـثـ وـاـهـتـمـاـهـ؛ كـتـبـ لـيـ رسـالـةـ يـشـكـوـ فـيـهـاـ مـنـ مـظـاهـرـ سـلـيـةـ تـدـورـ حـوـلـ اللـحـيـةـ، وـالـإـسـبـالـ، وـالـغـنـاءـ، وـكـشـفـ وـجـهـ الـمـرـأـةـ، وـالـنـمـصـ، وـالـتـدـخـينـ..

احتسابـهـ مـحـمـودـ، وـنـيـتـهـ صـالـحـةـ، وـلـلـشـرـيـعـةـ كـلـمـتـهـاـ فـيـ التـفـصـيـلـاتـ كـمـاـ لـهـاـ كـلـمـتـهـاـ فـيـ الـكـلـيـاتـ، وـلـكـنـهـ يـحـتـاجـ إـلـىـ أـنـ يـعـطـيـ مـوـضـوـعـ الـإـيمـانـ وـتـرـسـيـخـهـ فـيـ الـقـلـبـ وـالـعـقـلـ، وـتـعـظـيمـ اللـهـ وـمـحـبـتـهـ وـرـجـاءـهـ وـخـوفـهـ.. مـزـيـداـ مـنـ الـاـهـتـمـاـمـ وـالـأـوـلـوـيـةـ!ـ يـحـتـاجـ إـلـىـ جـوـارـ إـلـىـ رـبـهـ بـالـشـكـوـىـ مـنـ هـشـاشـةـ الـإـيمـانـ، وـغـيـابـ الـإـحـسـاسـ بـالـرـقـيـبـ الـرـبـيـانـ لـدـىـ النـاسـ، وـسـطـوـةـ الـمـادـيـاتـ،ـ وـضـعـفـ الـأـخـلـاقـ، وـجـفـافـ الـرـوـحـ!

كـانـ الصـحـابـةـ يـتـعـلـمـونـ الـإـيمـانـ قـبـلـ الـقـرـآنـ،ـ كـمـاـ يـقـولـ اـبـنـ عـمـ:ـ "تـعـلـمـنـاـ الـإـيمـانـ ثـمـ تـعـلـمـنـاـ الـقـرـآنـ فـاـزـدـدـنـاـ إـيمـانـاـ،ـ وـأـنـتـمـ تـعـلـمـونـ الـقـرـآنـ ثـمـ تـعـلـمـونـ الـإـيمـانـ"ـ (ـأـخـرـجـهـ الـحـاـكـمـ وـغـيـرـهـ وـصـحـحـهـ).

وـعـنـ جـنـدـبـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ قـالـ:ـ (ـكـنـاـ مـعـ النـبـيــ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمــ وـنـحـنـ فـتـيـانـ حـزـاـوـرـةـ فـتـعـلـمـنـاـ الـإـيمـانـ قـبـلـ أـنـ نـتـعـلـمـ الـقـرـآنـ ثـمـ تـعـلـمـنـاـ الـقـرـآنـ فـاـزـدـدـنـاـ بـهـ إـيمـانـاـ)ـ (ـأـخـرـجـهـ اـبـنـ مـاجـهـ).

وـمـنـ مـعـنـىـ هـذـاـ أـنـ يـبـدـأـ التـفـقـهـ وـالـتـعـلـمـ بـمـعـرـفـةـ أـسـمـاءـ اللـهـ وـصـفـاتـهـ،ـ وـدـرـاسـتـهـ دـرـاسـةـ رـبـيـانـةـ تـقـومـ عـلـىـ تـجـذـيرـ الـإـحـسـاسـ بـهـاـ فـيـ الـقـلـبـ قـبـلـ الـخـوـضـ فـيـ الـجـدـلـ مـعـ الـمـخـالـفـينـ وـالـمـنـحـرـفـينـ،ـ وـلـيـسـ كـلـ أـحـدـ يـحـتـاجـ إـلـىـ الـجـدـلـ وـمـعـرـفـةـ طـرـائـقـ الـفـرـقـ وـمـذـاهـبـهاـ،ـ وـإـنـمـاـ هـذـاـ شـأـنـ الـمـتـخـصـصـينـ وـالـبـاحـثـينـ.

وـإـذـاـ كـانـ اـبـنـ عـمـ تـجـرـأـ وـعـابـ قـرـاءـ زـمـانـهـ بـأـنـهـ يـتـعـلـمـونـ الـقـرـآنـ ثـمـ يـتـعـلـمـونـ الـإـيمـانـ،ـ فـكـيـفـ سـيـقـولـ عـمـنـ يـتـعـلـمـونـ الـفـلـيـلـ مـنـ الـقـرـآنـ وـلـاـ يـتـعـلـمـونـ مـعـهـ وـلـاـ بـعـدـ دـرـوـسـاـ حـقـيقـيـةـ فـيـ الـإـيمـانـ؟ـ

تـعـرـفـ إـلـىـ اللـهـ بـأـيـاتـهـ وـكـلـمـاتـهـ وـأـفـعـالـهـ مـعـرـفـةـ تـورـثـ الـحـبـ،ـ فـالـحـبـ هـوـ أـعـظـمـ مـكـوـنـاتـ الـعـبـودـيـةـ،ـ وـلـهـ النـصـيبـ الـأـوـفـرـ وـالـحـظـ الـأـكـثـرـ،ـ فـهـوـ كـالـأـرـاسـ لـلـطـائـرـ.

وـيـأـتـيـ بـعـدـ ذـلـكـ الرـجـاءـ وـالـخـوـفـ،ـ وـهـمـ مـتـعـادـلـانـ مـتـسـاوـيـانـ كـالـجـنـاحـينـ.

حـينـ تـعـرـفـ رـبـكـ وـرـحـمـتـهـ وـفـضـلـهـ وـسـعـتـهـ وـكـرـمـهـ،ـ وـتـعـرـفـ عـطـاءـهـ وـجـوـدـهـ،ـ وـتـعـرـفـ عـقـابـهـ وـعـذـابـهـ لـلـمـعـانـدـيـنـ،ـ فـسـوـفـ تـعـتـدـلـ كـفـةـ الـأـحـكـامـ عـنـكـ،ـ وـتـعـطـيـ كـلـ ذـيـ حـقـ حـقـهـ دـوـنـ إـجـحـافـ أـوـ اـعـتـسـافـ،ـ سـتـتـواـزـنـ فـيـ عـنـيـاتـكـ بـالـبـاطـنـ وـالـظـاهـرـ،ـ وـتـتـواـزـنـ فـيـ مـرـاـقـبـةـ

نفسك قبل مراقبة الآخرين.

«الإيمان أولاً»؛ هو الشعار الذي يجب أن تقوم عليه التربية والدعوة والتعليم، ثم تبني المسائل العملية على ذلك الأساس المتيقن بلا إفراط ولا تفريط.

قد تشيع الثقافة الدينية في مجتمع ما، ولكن هذا لا يعني أن الناس أصبحوا متدينين حقاً وصدقأً حتى يصرفوا الجهد الكبير والأعظم والأطول لمسألة الإيمان القلبي الصادق العميق؛ الذي يصل العبد بربه خضوعاً وخشوعاً ومحبةً ورجاءً وخوفاً وإدراكاً لحكمته في الأقدار، وإيماناً بوعده ووعيده وأخباره وأحكامه حتى لو لم يعلموا تفصيلاً فهو مستعدٌ للإيمان بها وامتثالها والاستسلام لمقتضياتها.

في قوله سبحانه: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ وَيَنْتَهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} (17) سورة هود.

أشار ابن تيمية إلى أن البينة هي الإيمان والشاهد الذي يتلوه هو القرآن.

وفي قوله تعالى: {نُورٌ عَلَى نُورٍ} (35) سورة النور، قال: نور الإيمان، ثم نور القرآن.

وكان السلف يعتنون بتعليم الصغار (المفصل) من القرآن ويسمونه (المحكم)، حتى قال عمر: "من كان منكم متعلماً فليتعلم المفصل فإنه أيسر"، والمفصل يكاد أن يكون من المكي المختص بترسيخ العقيدة وتدعم الإيمان والتعريف بالله.

ثم شباب منشغل عن الدين الحق بالدين الفرعى التفصيلي، ومنشغل عن تقويم نفسه بتقويم الآخرين، وعن مراقبة باطنها بمراقبة الخلق أو التسرع في إصدار الأحكام ضدهم.. وكأنه قاضٍ في محكمة جنایات!

حين تعرف الله ثم تسمع حديثاً يتوعّد بالطرد من رحمته على فعلٍ لا يرقى إلى الذنب أو مختلف فيه بين الصحابة ومن بعدهم كخضاب السواد، فلن يشق عليك أن تقدِّم المعرفة الإيمانية الجوهرية برحمَة الله وسعة فضله وجوده ومغفرته على آثار متربدة بين الثبوت والضعف والرفع والوقف والعلة والسلامة!

وعلى القول بصحتها فقد يغيب عنك مغزاها، ومعناها، ومقصدها، وسياقها الذي وردت فيه، ولعلها وعيد على إخلال بأصول الأخلاق أو التعامل، وتم الرمز له بأحد مظاهره أو أشكاله السائدة المقررة لدى المخاطبين الأولين..

أو هو وعيد على من يفعل ذلك لغرض فاسد؛ كالغش أو التغريب أو تقدِّم المحرمات والمنكرات.

تعتني الدروس الرسمية والحلق العلمية بآيات الأحكام، وأحاديث الأحكام، وفقه الأحكام حتى لطفل في المرحلة المتوسطة أو الثانوية فضلاً عن فتى في الجامعة، ثم تصبح هذه المعلومات المدروسة محور الجدل والحوار والبحث والملاحظة والإنكار، حتى يقول كثير من الطلبة: أتمنى أن أصبح مفتياً أو فقيهاً، وقد يكون ذلك لتطبع نفسه لنوع من الرئاسة والواجهة على حداثة سنها!

- أين الدروس التي تزرع فينا حب الله منذ نعومة أظفارنا؟

- أين المجالس التي تملأ جوانحنا بتعظيمه ورجائه وخشيته؟

- أين الحلقات التي تحب إلينا شخص نبينا الكريم وسيرته وسنته؟

- أين نتعلم مكارم الأخلاق والآداب في اللسان والجوارح؟ والتي إنما بُعث النبي - عليه الصلاة والسلام - لتمكيلها وتنميها.

- أين نجد رياض الجنة التي تصلنا بالله وتعزز إيماننا، ووصلنا بالقرآن كما أُنزل، لا تقتصر على أحكام الحلال والحرام أو معرفة المفردات أو الإعراب فحسب؟

ثم فقهان محتاجان إلى تأملٍ ونظر:

أولهما: فقه الأولويات، ووضع الأمور في ترتيبها الصحيح من غير إخلال بأصل ولا بفرع.

والثاني: فقه المقادير؛ الذي يعني بإعطاء كل ذي حق حقه من غير إسراف ولا إقتار.

اللهم اجعلنا من أردت بهم خيراً ففقهتهم في الدين وعلّمهم التأويل، واجعل ما علّمنا حجة لنا لا حجة علينا يا أرحم

الراحمين.

الإسلام اليوم

المصادر: